

الفصل العاشر

١. الملاك جبرائيل.
٢. المسيح.
٣. بين المعلمين.
٤. النبي يوحنا.

١ . الملاك جبرائيل

أبقى الشيطان الإنسان في قبضة الموت لعدة قرون. وقد ظل الإنسان يعاني طويلاً تحت عبء الخطيئة الثقيل مع أمل واحد فقط يلوح في الأفق ألا وهو مجيء المُخلص الموعود. فرغم أن الله سمح - بمقتضى رحمته الواسعة - بموت حيوان بريء بدلاً من الإنسان، إلا أن تلك لم تكن سوى دفعة مؤقتة عن الخطيئة. ففي فكر الله الأزلي، لم يكن دم الحيوانات يُزيل الخطيئة؛ بل كل ما كان يفعله هو أنه يُكفّر عن الخطيئة (يُغطيها) لفترة زمنية محدودة فقط. وهذا هو ما يوضحه الكتاب المقدس تماماً:

«لأنه لا يُمكن أن دم حيران وثيوس يرفع خطايا،»
(عبرانيين ١٠: ٤)

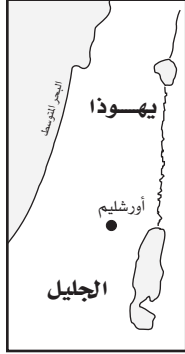
إذاً ما هو الحل لمشكلة الخطيئة؟ ربّما يكون هناك شخص مستعد للموت من أجل شخص آخر؛ لكن هذا لا يُعتبر حلاً أيضاً لأن الشخص الخاطئ لا يُمكنه أن يُخلص خاطئاً آخر! يمكن تشبيه هذا الواقع برجلين وقعا في حفرة عميقة داخل منجم قديم. وبينما هما يُصارعان في الظلام في وسط تلك الحفرة، قال أحدهما للآخر: «أخرجني من هذا المكان المرعب. إنني أغرق في هذا الوحل الكريه!» فأجابته رفيقه: «هل أنت مُدرك لما تقول؟ إنني أغرق مثلك ولا أستطيع مساعدتك!» وبالطريقة نفسها، لا يمكن لشخص خاطئ أن يُنقذ خاطئاً آخر من حفرة الخطيئة.

كان لا بدّ من وجود شخص يمكنه تقديم المساعدة. لكن إذا نظرنا إلى العالم كله فلن نجد شخصاً واحداً كاملاً بلا خطيئة سواء كان نبياً أو كاهناً. فقد وُلد الناس جميعاً منذ بدء الزمان باعتبارهم أبناء آدم؛ أي أنهم وُلدوا وهم يحملون طبيعة آدم الخاطئة. لذلك، لم يُكن هناك شخص واحد على وجه الأرض يمكنه أن يقوم بدور المُخلص لأنه ينبغي عليه أن يتعامل مع عقوبة خطيئته هو قبل كل شيء.

وهكذا، احتاج الإنسان لمن ينقذه من حفرة الخطيئة. وكان ينبغي على هذا المُخلص أن يكون بلا خطيئة، وأن يكون قادراً على تخليص كل البشر من مُستنقع الخطيئة المرعب. لكن من عساه يكون هذا المُخلص؟ وأين يمكن لله أن يجد شخصاً كهذا بلا خطيئة؟ هل سيوكل الله هذه المهمة لأحد ملائكته أو أنبيائه؟ لم يُكن الناس يملكون إجابات لهذه الأسئلة! وكيف سيقوم الله بالإعلان عن شخصية هذا المُخلص الموعود الذي سيُخلص العالم؟ وحينما يأتي، كيف يمكن للناس أن يعرفوه؟

قبل مجيء المُخلص الموعود، كان الله مُزمعاً على إرسال رسولٍ خاصٍّ للإعلان عن ذلك الحدث. ولا يُمكن للمرء هنا إلا أن يتساءل ما إذا كانت الملائكة تتناقش فيما بينها حول من سيكون حامل هذه البشارة أو هذا الخبر السعيد. هل سيكون واحداً منهم؟ لكن في ذلك الوقت بدأت الأنبياء تصل عن شخصية المُخلص.

زكريا الكاهن



كَانَ فِي أَيَّامِ هِيرُودَسَ مَلِكِ الْيَهُودِيَّةِ كَاهِنٌ اسْمُهُ زَكَرِيَّا ... وَأَمْرَأَتُهُ مِنْ بَنَاتِ هَارُونَ وَاسْمُهَا أَلِيسَابَاتُ. وَكَانَا كِلَاهُمَا بَارِّينَ أَمَامَ اللَّهِ، سَالِكِينَ فِي جَمِيعِ وَصَايَا الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ بِإِلْتِمَاعٍ. وَلَمْ يَكُنْ لهُمَا وَلَدٌ، إِذْ كَانَتِ أَلِيسَابَاتُ عَاقِرًا. وَكَانَا كِلَاهُمَا مُتَّقِمِينَ فِي أَيَّامِهِمَا.

فَبَيْنَمَا هُوَ يَكْهَنُ فِي نَوْبِهِ فَرَفَتْهُ أَمَامَ اللَّهِ، حَسَبَ عَادَةِ الْكَهَنُوتِ، أَصَاتِهِ الْقِرْعَةَ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى هَيْكَلِ الرَّبِّ وَيَبْخَرُ. وَكَانَ كُلُّ جَمْعٍ مِنَ الشَّعْبِ يَصُلُّونَ خَارِجًا وَقْتَ الْبُخُورِ.

فَظَهَرَ لَهُ مَلَاكُ الرَّبِّ وَأَقْبَضَهُ عَنْ يَمِينِ مَذْبَحِ الْبُخُورِ. فَلَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا اضْطَرَبَ وَوَقَعَ عَلَيْهِ خَوْفٌ. فَقَالَ لَهُ الْمَلَاكُ: «لَا تَخَفْ يَا زَكَرِيَّا، لَأَنَّ طَلِبَتَكَ قَدْ سَمِعْتُ، وَأَمْرَاتُكَ أَلِيسَابَاتُ سَتَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتُسَمِّيهِ يُوْحَنَّا. وَيَكُونُ لَكَ فَرْحٌ وَابْتِهَاجٌ، وَكثِيرُونَ سَيَفْرَحُونَ بِوِلَادَتِهِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ عَظِيمًا أَمَامَ الرَّبِّ، ... وَيُرَدُّ كَثِيرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ إِلَهُهِمْ. وَيَتَقَدَّمُ أَمَامَهُ ... لِيُرَدَّ قُلُوبُ الْآبَاءِ إِلَى الْإِبْنَاءِ، وَالْعَصَاةُ إِلَى فِكْرِ الْإِتْرَارِ، لِكَيْ يَهَيِّئَ لِلرَّبِّ شَعْبًا مُسْتَعِدًّا»

(لوقا ١: ٥-١٧)

قال الملك جبرائيل لزكريا الكاهن إن ابنه يوحنا (المعروف أيضاً باسم يحيى) سيكون هو الرسول الذي يهيئ الطريق لمجيء الرب. كانت البشارة بولادة ابن لزكريا في مثل هذه السن مفرحة له، ولكن الأمر الذي أفرحه أكثر هو البشارة بمجيء الرب. وقبل أن يحدث ذلك بأربعمئة سنة، كتب النبي ملاخي عن هذا الحدث فقال:

«هَآنَذَا أُرْسِلُ مَلَائِكِي فِيهِيئُ الطَّرِيقَ أَمَامِي. وَيَأْتِي بَعْتَهُ إِلَى هَيْكَلِهِ السَّيِّدِ الَّذِي تَطْلُبُونَهُ، وَمَلَاكُ الْمَهْدِ الَّذِي تَسْرُونَ بِهِ. هُوَذَا يَأْتِي، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (ملاخي ٣: ١)

كانت تلك النبوءة واضحة تماماً. ولا بُدَّ أَنَّ الكاهن زكريا قد تعجَّب من عدم رؤيتها من قبل! فقد كانت واضحة كل الوضوح! قرب الجنود قال: «هَآنَذَا أُرْسِلُ مَلَائِكِي فِيهِيئُ الطَّرِيقِ أَمَامِي!» علاوة على ذلك فقد قال الملك إن الرسول الذي سيهيئ الطريق أمام الرب هو ابن زكريا الكاهن - يوحنا!

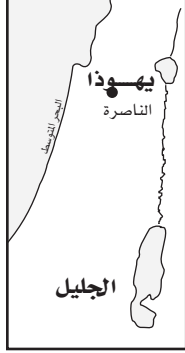
أليصابات

عاد زكريا إلى بيته وهو في حالة ذهول، وقد حفظ الله وعده حيث أن الأمر تم كما قال الملك تماماً:

وَبَعْدَ تِلْكَ الْأَيَّامِ حَبِلَتْ أَلِيسَابَاتُ امْرَأَتَهُ، وَأَخْفَتْ نَفْسَهَا خَمْسَةَ أَشْهُرٍ قَائِلَةً: «هَكَذَا قَدْ فَعَلَ بِي الرَّبُّ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي فِيهَا نَظَرْتُ إِلَيْيَ، لِيُنْزِعَ عَارِي بَيْنَ النَّاسِ» (لوقا ١: ٢٤-٢٥)

كان السؤال الذي يُحير زكريا هو: كيف سيأتي ربُّ الجنود إلى الأرض؟ هل سيأتي في عربة ذهبية تتقدمها سبعة خيول بيضاء وتُحيط بها حشود الملائكة النورية؟ هل سيخلع الحكام الرومان وهيرودس الكبير عن عروشهم؟ لكن الملك لم يقل له أي شيء عن ذلك!

مريم



ينتقل المشهد الآن إلى موقع آخر حيث يقوم الملاك جبرائيل

بزيارة أخرى إلى فتاة شابة تدعى «مريم».

«وَفِي الشَّهْرِ السَّادِسِ أَرْسَلَ جِبْرَائِيلُ الْمَلَاكُ مِنَ اللَّهِ إِلَى مَدِينَةِ
مِنَ الْجَلِيلِ اسْمُهَا نَاصِرَةٌ، إِلَى عَذْرَاءَ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ بَيْتِ
دَاوُدَ اسْمُهُ يُوسُفُ. وَاسْمُ الْعَذْرَاءِ مَرْيَمُ» (لوقا ١: ٢٦، ٢٧)

كان يوسف ومريم مخطوبين في ذلك الوقت. وتقول الأسفار

المقدسة إنهما كانا من سلالة النبي داود الذي حكم بني

إسرائيل كملك قبل ١٠٠٠ سنة من عصرهما.

فَدَخَلَ إِلَيْهَا الْمَلَاكُ وَقَالَ: «سَلَامٌ لَكَ أَيُّهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! الرَّبُّ

مَعَكَ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ». فَلَمَّا رَأَتْهُ اضْطَرَبَتْ مِنْ كَلَامِهِ،

وَفَكَّرَتْ: «مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التَّحِيَّةُ»، فَقَالَ لَهَا الْمَلَاكُ: «لَا تَخَفِي يَا مَرْيَمُ، لِأَنَّكَ قَدْ وَجَدْتَ

نِعْمَةً عِنْدَ اللَّهِ. وَهَذَا أَنْتِ سَتَحْبِلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّيَنَّهُ يَسُوعَ»

(لوقا ١: ٢٨-٣١)

ماذا؟ أصابت الدهشة مريم لدرجة أنها عجزت عن الكلام! وحينما تماثلت نفسها أخيراً

تكلّمت وطرحت سؤالاً منطقياً جداً:

فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلَاكِ: «كَيْفَ يَكُونُ هَذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلًا؟»

فَأَجَابَ الْمَلَاكُ وَقَالَ لَهَا: «الرُّوحُ الْقُدُسُ يَجِلُّ عَلَيْكَ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تَطَّلُكُ، فَذَلِكَ أَيْضًا الْقُدُوسُ

(لوقا ١: ٣٤، ٣٥)

الْمَوْلُودُ مِنْكَ يُدْعَى ابْنُ اللَّهِ»

كانت مريم ستصبح أمُّ المُخْلِصِ الذي وعد الله به إبراهيم ونسله عبر العصور!

أصبح الأمر واضحاً الآن. فقد كانت مريم تعرف القصص القديمة جيداً. ففي جنة عدن،

وعد الله حواء بأن المُخْلِصِ الموعود سيأتي من نسلها. فالله لم يقل إن المُخْلِصِ سيأتي من

نسلها هي وآدم، بل من نسلها هي فقط. وقد كان ذلك الوعد على وشك أن يتحقّق، وسوف

يولد الطفل من عذراء — فسوف يكون من نسلها هي فقط بمعنى أنه لن يكون له أب بشري.

وهكذا، رغم أن كلمات الرب لحواء في جنة عدن لم تكن مفهومة آنذاك، إلا أنها أصبحت

ذات مغزى مهم الآن.

كان لتلك الملاحظة الصغيرة معانٍ عظيمة. فحيث أن الطفل لن يُحبلَ به من زرع رجل،

فهو لن يكون جزءاً من سلالة آدم الملوّثة بالخطيئة. فقد ورث جميع أحفاد آدم طبيعته

الخطيئة. لكن يسوع لن يكون ابناً لآدم، بل ابناً لله (سوف تجد في الصفحات اللاحقة من

هذا الفصل شرحاً لعبارة «ابن الله») وبالتالي، سوف يحمل هذا الطفل طبيعة الله العليّ.

لهذا، يقول الكتاب المقدّس:

الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ آدَمُ مِنَ الْأَرْضِ تُرَابِي. الْإِنْسَانُ الثَّانِي الرَّبُّ يَسُوعُ مِنَ السَّمَاءِ

(١ كورنثوس ١٥: ٤٧)

وهكذا، لا عجب أن الملاك أشار إلى الطفل بأنه «القُدُوس». سوف يكون هذا الطفل بلا

خطيئة مثل الله تماماً. وبالتالي، سوف يكون يسوع هذا كاملاً منذ لحظة الحبل به.

وعليه، لن يأت رب الجنود بكل العظمة والفخامة السماوية، بل سيأتي إلى كوكب الأرض مثلما جاء جميع بني البشر - أي أنه سيأتي كطفل رضيع! ثم قال الملاك جبرائيل لمريم: «وهذا أليصاباتُ نسيبتُك هي أيضاً حُبلى بآبِنٍ فِي شَجْوَحَتِهَا، وَهَذَا هُوَ الشَّهْرُ السَّادِسُ لَتِلْكَ المدعوَّةِ عَاقِراً، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَى اللَّهِ». فقالت مريم: «هؤُدا أنا أمةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ». فَمَضَى مِنْ عِنْدِهَا الْمَلَكُ (لوقا ١: ٣٦-٣٨)

كانت مريم تعرف أن أليصابات قد تجاوزت سن الحبل والولادة. لكن إذا كان بإمكان أليصابات أن تحبل، فيجدُر بها أن تُصدِّق أن عذراء مثلها يمكن أن تلد طفلاً هي الأخرى. وهكذا، اختارت مريم أن تُصدِّق كلام الملاك وأن تثق بالله.

النبى يوحنا

(لوقا ١: ٥٧)

وَأَمَّا أليصاباتُ فَهَمَّ زَمَانُهَا لِتَلِدَ، فَوَلَدَتْ ابْنًا

تمَّت ولادة يوحنا (يحيى) بذات الطريقة التي وعد بها الله زكرياً الكاهن. ويقول الكتاب المقدس إن تلك كانت حادثة رائعة لأن المرأة العاقر كانت تُعتبر عاراً على مجتمعا. وبعد أن أطلق زكرياً وأليصابات اسم يوحنا على ابنهما، انفتح فم زكريا في الحال وانطلق لسانه فتكلّم مباركاً الله حيث يقول الكتاب المقدس:

وَأَمْتَلَأَ زَكَرِيَّا أَبُوهُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُّوسِ، وَتَنَبَّأَ قَائِلاً: «مُبَارَكُ الرَّبِّ ... كَمَا تَكَلَّمَ بِفَمِ أَنْبِيَاءِهِ الْقَدِيسِينَ الَّذِينَ هُمْ مِنْذُ الدَّهْرِ. ... لِيَصْنَعَ رَحْمَةً مَعَ آبَائِنَا وَيَذْكَرَ عَهْدَهُ الْقُدُّوسَ، الْقَسَمَ الَّذِي حَلَفَ لِإِبْرَاهِيمَ أَيْبَانًا ...»

(لوقا ١: ٦٧، ٧٢، ٧٣)

كان نشيد زكرياً عبارة عن رحلة مُصغرة عبر تاريخ العالم تظهر فيه وعود الله المتكررة التي أعطاها عبر القرون بأنه سيرسل مُخلصاً لهذا العالم. ويمكنك هنا أن ترى زكرياً العجوز وهو يحمل طفله عالياً ويحدِّق في عينيه ويقول:

«وَأَنْتِ أَيُّهَا الصَّبِيُّ نَبِيُّ الْعَلِيِّ تَدْعِينِي، لِأَنَّكَ تَتَقَدَّمُ أَمَامَ وَجْهِ الرَّبِّ لِتُعِدَّ طَرَفَهُ ...»

(لوقا ١: ٧٦)

وهكذا، كان يوحنا هو رسول الله الذي سيعلن عن مجيء المُخلص الموعود إلى العالم.

اسم ومعنى!

يُدرِّون لنا الكتاب المقدَّس أقوال العديد من الأنبياء الذين عاشوا قبل ميلاد يسوع بوقت طويل وكتبوا عن مجيئه بدقة مُتناهية. فقبل ميلاد يسوع بسبعمئة سنة، كتب النبي إشعياء:

لأنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَيَّ كَنَفِيهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلَهًا قَدِيرًا، أَبَا أَبَدِيًّا، رَبِّيسَ السَّلَامِ

(إشعياء ٩: ٦)

لاحظ أنَّ الولد يُدعى «إلهًا قديرًا» - وهما اسمان يعنيان شيئاً واحداً فقط ألا وهو أنَّ هذا الولد هو الله.

وكما رأينا من قبل، فإنَّ لله أسماء وألقاب عديدة يصف كلُّ منها شيئاً عن شخصيته. وهناك تناقض مُثير للدهشة والاستغراب بين اسمين من الأسماء التي تُطلق على

١ :

١. «ابن الله»: اعتقد البعض أنَّ لقب «ابن الله» يعني أنَّ الله أقام علاقة جنسيَّة مع مريم. لكنَّ مثل هذه الفكرة ليست خاطئة فحسب، بل هي تجديف على الله؛ فحاشا لله أن يفعل شيئاً كهذا! ويجب أن نعرف أنَّ هذه الفكرة ليست موجودة في كلمة الله على الإطلاق. بل في حقيقة الأمر أنَّ كلمة الله تُعلِّم شيئاً مُختلفاً تماماً. فالكتاب المقدَّس يُخبرنا بوضوح أنَّ مريم كانت عذراء، وأنها بقيت كذلك إلى أن ولدت يسوع. وهكذا، فقد حَمَلت مريم بيسوع بمُعجزة وليس بسبب أيِّ علاقة جنسيَّة. فقد أمر الله جسم مريم أن يفعل شيئاً خارقاً للطبيعة ألا وهو أن تلد طفلاً رغم كونها عذراء.

لكن إذا لم تكن عبارة «ابن الله» تحمل معنىً جسدياً، فما الذي تعنيه؟

تستخدم مُعظم اللغات كلمة «ابن» للدلالة على معاني بعيدة كل البُعد عن التناسل الجسدي. فعلى سبيل المثال، إذا قلنا إنَّ فلاناً هو «ابن الجبل» فنحن لا نعني أنَّ الجبل هو الذي أنجبه؛ بل نعني بذلك أنه يسكن الجبال أو يعيش في منطقة جبلية. وإن قلنا إنَّ فلاناً هو «ابن النيل» فنحن لا نقصد أنَّ نهر النيل قد أنجب طفلاً؛ بل نعني أنَّ ذلك الشخص يعيش في مصر أو على ضفاف نهر النيل. كذلك، فإنَّ الكتاب المقدَّس يستخدم كلمة «ابن» لتوضيح أمر ما بشأن الشخص المعني. تأمَّل في الأمثلة التالية:

• وَيُوسُفُ الَّذِي دُعِيَ ... بَرْنَابَا، الَّذِي يَتَرَجَّمُ ابْنَ الْوَعْظِ [أو «ابن التشجيع»

(أعمال الرسل ٤: ٣٦)

...، [

تَمَّ إطلاق لقب «ابن الوَعْظ» (أو «ابن التشجيع») على يوسف لا لأنَّ اسم أبيه كان «تَشْجِيع»؛ بل لأنَّه (أي يوسف) كان يتميَّز بتشجيع الآخرين!

(أفسس ٦:٥)

• ... أَبْنَاءُ الْمَعْصِيَةِ

من الواضح أنَّ هذه الآية لا تعني أنَّ شخصاً يُدعى «مَعْصِيَةٌ» قد أنجب العديد من الأبناء؛ بل هي تُشير إلى الأشخاص الذين يعصون الله بطبيعتهم.

(أعمال الرسل ١٣: ١٠)

• ... يَا ابْنَ إبْلِيسَ! يَا عَدُوَّ كُلِّ بَرٍّ! ...

من الواضح أيضاً أنَّ إبليس لم يتزوج ويُنجب ابناً؛ بل إنَّ الآية تُشير إلى شخصٍ شريرٍ.

وهكذا، حينما يتحدث الكتاب المقدس عن يسوع باعتباره «ابن الله» فيجب أن ندرك أنَّ هذه العبارة تُشير إلى صفته. فيسوع قُدوس ويتمتع بطبيعة كاملة - أي نفس طبيعة الله - وذلك على النقيض من الإنسان العادي الذي يتمتع بطبيعة فاسدة باعتباره «ابن آدم».

وَهُوَ الابْنُ؛ أَي يَسُوعُ بَهَاءِ مَجْدِهِ أَي بَهَاءِ مَجْدِ اللَّهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ (عبرانيين ١: ٣)

١. «ابن الإنسان»: لا يعني هذا اللفظ أنَّ يسوع جاء من أب بشريٍّ. (فرغم أنَّ يوسف كان خطيب مريم، إلا أنه لم يكن أب يسوع) وفي الحقيقة أنَّ يسوع لم يستخدم هذا اللفظ إلا للإشارة إلى نفسه بمعنيين:

أ) إعلان بشريته: فرغم أنَّ يسوع لم يكن له أب بشري، إلا أنه اتخذ شكلاً بشرياً، وعاش كإنسان؛ لكنه كان بلا خطيئة. وسوف نرى أهمية هذا الأمر في وقتٍ لاحقٍ من قصتنا.

ب) إعلان هويته الحقيقية: فمنذ قرون عديدة، أدرك علماء الكتاب المقدس أنَّ هذا اللفظ يُشير إلى المسيح. وقد اقتبس يسوع أقوال أنبياء العهد القديم مُشيراً بذلك إلى أنه تَمَّ نبوءاتهم عن المُخلص الموعود. تأمل في ما كتبه النبي دانيال قبل

أكثر من ٥٠٠ سنة من ميلاد يسوع:

كُنْتُ أَرَى فِي رُؤْيِ اللَّيْلِ ... مِثْلَ ابْنِ إِنْسَانٍ ... أُعْطِيَ سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا لِنَتَعَبَدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ وَالْأَلْسِنَةِ ...

(دانيال ٧: ١٣، ١٤)

وكُلَّمَا تَقَدَّمْنَا أَكْثَرَ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، زَادَ فَهْمُنَا لِمَعْنَى هَذَا اللَّفْظِ.

اللُّقْبَانُ مَعَا

هناك مئات الأسماء والألقاب التي تنطبق على يسوع؛ وما هذان اللقبان («ابن الله» و«ابن الإنسان») سوى اثنين منها. وحينما نضع هذين اللفظين معاً فإنهما يعينان أمراً واحداً ألا وهو أن:

(١ تيموثاوس ٣: ١٦)

... اللَّهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ ...

لكنَّ الله لم يتوقف عن كونه إلهاً حينما أصبح إنساناً. كما أنه لم يُصبح خاطئاً حينما اتخذ هيئة إنسان. فرغم أنه قَبِلَ بوجود بعض المحدوديات التي يفرضها الجسد المادي، إلا أنه كان يتمتع بكل القوة، وكل العلم، وكل الكمال والبر والقداسة.

ورغم أننا قد لا نستوعب كيف أمكنه أن يحصر نفسه في جسد بشري دون أن يفقد صفاته الإلهية، إلا أن هذا هو ما يُعلّمه الكتاب المقدس. فالله العظيم يمكنه أن يفعل أي شيء باستثناء مناقضة نفسه. وحيث أنه أوحى لأتباعه بأن يكتبوا عن مجيئه إلى الأرض بهيئة بشرية، فمن المستحيل أن لا يقوم بذلك. وحينما نتقدم أكثر في قصتنا، سوف ندرك سبب قيام الله بالأمر بهذه الطريقة.

توضيح أخير

كما أن الكثيرين أساءوا فهم مصطلح «ابن الله» معتقدين أنه يعني أن الله قد أنجب ولداً من امرأة، فقد اعتقد البعض أنه حيث أن مريم هي أم يسوع، فهذا يعني أنها أم الله. وهذا يعني بالطبع أن مريم كانت إلهة هي الأخرى. كذلك، فقد آمن البعض أن مريم هي ملكة السماء التي تزوجها الله وأنجبت يسوع. ونقول مرةً أخرى أن الكتاب المقدس يعتبر مثل هذه الأفكار والمعتقدات تجديفاً وحقاً على الله. فكلمة الله لا تُعلم مثل هذه الأفكار والمفاهيم بتاتاً بل إن الكتاب المقدس واضح تماماً بهذا الشأن. فقد كانت مريم فتاة تحب الله وتوقّر كلمته المقدسة؛ لكنها لم تكن سوى إنسانة عادية مثل باقي البشر. كما أنها لم تكن مُعادلة لله بأي شكل من الأشكال. صحيح أن الله استخدمها للمجيء إلى هذا العالم، لكن الأمر يتوقف عند هذا الحد فقط. فقد كانت مريم نفسها إنسانة خاطئة واعترفت بحاجتها لمخلص:

فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «تَعْظُمُ نَفْسِي الرَّبُّ، وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللَّهِ مُخْلِصِي...»

(لوقا ١: ٤٦، ٤٧)

٢ . المسيح

أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف، قبل أن يجتمعا، وجدت حبل من الروح القدس. فيوسف رجلها إذ كان باراً، ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها أن يتركها سراً

(متى ١: ١٨، ١٩)

عادات وتقاليد ذلك الزمان، كان فسح الخطبة يتطلّب طلاقاً.

ويمكنك أن تتخيل كيف كانت حقيقة مشاعر يوسف آنذاك. فلا بد أن الألم كان يعتصر قلبه. فقد حبلت مريم ولم يكن الطفل طفله هو! وقد كان كشف الأمر على الملائكة يعني فضح مريم واعتبارها زانية إلا إذا كان كلامها عن الملاك الذي ظهر لها صحيحاً. كلا، لا يمكن لهذه الرواية أن تكون صحيحة! بل من المرجح أن مريم فقدت صوابها. فرغم أن يوسف أحبها، إلا أنه لم يستطع الزواج من فتاة خدعته وراحت تحاول إخفاء خدعتها بقصة خرقاء. في الحقيقة أننا لا نعرف كيف كان يوسف يفكر في ذلك

بحسب

الوقت، لكن هناك أمر نعرفه عنه يقيناً ألا وهو أنه اتَّخَذَ قراراً صعباً بأن يُطَلِّقَها بهدوء. وَلَكِنْ يَمَّا هُوَ مُتَمَكِّرٌ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، إِذَا مَلَكَ الرَّبُّ قَدْ ظَهَرَ لَهُ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: «يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ، لَا تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ. لِأَنَّ الَّذِي حَبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لِأَنَّهُ يَخْلُصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ.» وَهَذَا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: «هُوَذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبِلُ وَتَلِدُ ابْنًا، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّا نُوتِيلَ، الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اللَّهُ مَعَنَا»

(متى ١: ٢٠-٢٣)

سمع يوسف ذلك الكلام بكل وضوح. فمريم ما زالت عذراء، وسوف تلد طفلاً! وسوف يكون اسم الطفل «يسوع» الذي يعني «المنقذ» أو «المخلص». فسوف يُتَقَدَّ الناس ويُخَلِّصهم من عواقب خطاياهم. كما قال الملاك إِنَّ يَسُوعَ سَيَكُونُ لَهُ اسْمُ آخِرٍ أَلَا وَهُوَ «عِمَّا نُوتِيلَ» ومعناه: «اللَّهُ معنا». وهكذا، سوف يكون يسوع هو الله الذي يعيش بجسد بشري بين الناس.

وقد كتب النبي إشعياء عن هذا الحدث قبل ٧٠٠ سنة من وقوعه فقال:

وَلَكِنْ يُعْطِيكُمْ السَّيِّدُ نَفْسَهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبِلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ عِمَّا نُوتِيلَ (إشعياء ٧: ١٤)

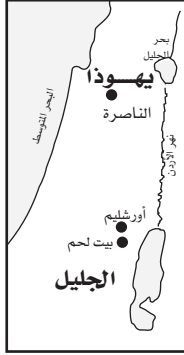
من المؤكَّد أنَّ يوسف هَبَّ واقفاً من سريره حينما سمع هذا الكلام. إذاً، فقد كان النبي إشعياء على حق! فما هي تلك النبوءة التي تتحقَّق بذات الطريقة التي تحدَّث عنها الله. لكن ما الذي سيقوله الناس؟ لا يُهمُّ! وهكذا، فقد قرَّر يوسف أن يُصَدِّقَ الله ويفعل مشيئته. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ يُوسُفُ مِنَ النَّوْمِ فَعَلَ كَمَا أَمَرَهُ مَلَاكُ الرَّبِّ، وَأَخَذَ امْرَأَتَهُ. وَلَمْ يَعْرِفْهَا حَتَّى وَلَدَتْ ابْنَهَا الْبِكْرَ. وَدَعَا اسْمَهُ يَسُوعَ (متى ١: ٢٤، ٢٥)

الولادة

وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ صَدَرَ أَمْرٌ مِنَ أَوْغُسْطُسَ قَيْصَرَ بِأَنْ يُكْتَتَبَ كُلُّ الْمَسْكُونَةِ (لوقا ٢: ١)

كان قيصر (إمبراطور روما) بحاجة لمزيد من الأموال. وكان إحصاء السكان، يعني قيام أناس أكثر بدفع الضرائب لروما. من المؤكَّد أنَّ يوسف لم يكن سعيداً بهذا الأمر لأنَّ زوجته مريم كانت على وشك الولادة. وحيث أنه كان يعمل في مهنة النجارة، فمن المرجَّح أنه كان يصنع مهدياً للطفل، وأنه كان قد استعان بالتقابلة المحليَّة في إعداد مكان نظيف وآمن للولادة. وبسبب هذا الإحصاء المفاجئ، كان ينبغي عليه أن يأخذ زوجته إلى بيت لحم التي كانت موطناً للملك داود قبل ألف سنة من ذلك الوقت. وهكذا، لا بدُّ أن قطع مسافة ١٢٠ كيلومتراً مع زوجته التي يمكن أن تلد في أي لحظة لم تكن بالفكرة المُحِبَّة لديه لا سيما أنَّ مثل تلك الرحلات كانت تتم إمَّا على ظهر حمار أو سيراً على الأقدام. لكن لماذا خرج الرومان بهذه الفكرة الآن؟ ولماذا لا يقومون بإحصاء السكان في بلدة يوسف (أي في الناصرة)؟ لكنَّ الرومان لم يُقدِّموا للناس أيَّ خيارات. لذلك، كان ينبغي على يوسف أن يصطحب زوجته مريم إلى بيت لحم.

فَذَهَبَ الْجَمِيعُ لِيَكْتَتِبُوا، كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَدِينَتِهِ. فَصَعِدَ يُوسُفُ أَيْضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تَدْعَى بَيْتَ لَحْمَ، لِكُونِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ. لِيَكْتَتِبَ مَعَ مَرْيَمَ امْرَأَتِهِ الْمَخْطُوبَةِ وَهِيَ حَبْلَى. وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ نَمَتْ أَيَّامُهَا نَتَلَدُ. فَوُلِدَتْ ابْنُهَا الْبِكْرَ وَقَمَطَتْهُ وَأَضَجَّتْهُ فِي الْمَدْوَدِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزِلِ (لوقا ٣: ٢-٧)



وهكذا، فقد وُلد يسوع في بيت لحم بعيداً عن الناصرة موطن يوسف ومريم. كانت مدينة بيت لحم مُزدحمة جداً لدرجة أنهما لم يتمكنوا من إيجاد مكان بيبتان فيه سوى إسطبل (حظيرة) للحيوانات. وكان أول مهد للطفل يسوع هو «مدود» (وعاء يُستخدم لإطعام الماشية) نظر يوسف إلى زوجته مريم واعتقد في بادئ الأمر أن كل خطله ذهبت

هباءً. فقد كان يُريد أن يوفر مكاناً آمناً ونظيفاً لها؛ لكن ها هما الآن في حظيرة حيوانات قذرة في بيت لحم! رغم هذا كله، حين نظر إلى الطفل شعر أن كل شيء على ما يرام! ... وَدَعَا اسْمَهُ يُسُوعَ (متى ١: ٢٥)

الرعاة

وَكَانَ فِي تِلْكَ الْكُوزَةِ رِعَاةٌ مَتَبَدِّينَ يَحْرُسُونَ حِرَاسَاتِ اللَّيْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ، وَإِذَا مَلَاكُ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجَّدَ الرَّبُّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. فَقَالَ لَهُمُ الْمَلَاكُ: «لَا تَخَافُوا! فِهَا أَنَا أَبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمْ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مَخْلَصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. وَهَذِهِ لَكُمْ الْعَلَامَةُ: تَجِدُونَ طِفْلاً مَمْعُطًا مُضْجَعًا فِي مَدْوَدٍ. وَظَهَرَ بَعْتَهُ مَعَ



الْمَلَاكُ جُمُهورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ اللَّهَ وَقَائِلِينَ: «الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الْأَعَالِي، وَعَلَى الْأَرْضِ السَّلَامُ، وَبِإِنْسَانِ الْمَسْرَّةِ» (لوقا ٢: ٨-١٤)

كان الرعاة يقومون بعملهم كالمعتاد. وغالباً ما كانت خراف قُطعانهم تستخدم لتقديم

الذبايح في الهيكل في اورشليم التي تبعد بضعة كيلومترات إلى الشمال من مدينة بيت لحم. كانت حياة أولئك الرعاة تسير بصورة طبيعية إلى أن ظهرت تلك الملائكة التي هزّت عالمهم لا بسبب مولد المخلص فحسب، بل وأيضاً بسبب هويته، ولا بدّ أن الرعاة راوحوا يتساءلون فيما بينهم: «هل سمعت ما سمعته أنا؟ المسيح هو ... الرب»

المسيح / المسياً

المسيح في اللغة العبرية هي المسياً. والكلمة في العربية أو العبرية تعني «الشخص الممسوح». وقد بقي لقب «المسياً» يطلق على المخلص الموعود لبضعة قرون.

وهكذا، ظهرت تلك الملائكة للرعاة وقالت إن المسيح أو المسياً هو الرب. أ فقد كان إعلان الملائكة للرعاة على النحو التالي:

(لوقا ٢: ١١)

... وُلِدَ لَكُمْ الْيَوْمَ ... مُخَلَّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ

وفي الأصل، كانت الملائكة تعلن ذلك نيابة عن الله:

أَلَيْسَ أَنَا الرَّبُّ وَلَا إِلَهٌ آخَرَ غَيْرِي؟ إِلَهٌ بَارٌّ وَمُخَلَّصٌ. لَيْسَ سِوَايَ

(إشعيا ٤٥: ٢١)

من المهم أن ندرك أن هذا هو نفس الإله الواحد؛ وإلا فسوف نصاب بالارتباك والتشويش. فقد تبدأ في التفكير بأن هناك إلهين - واحد كبير والآخر صغير. بالتأكيد لا، فالكتاب المقدس بأكمله يؤكد على وحدانية الله:

(إشعيا ٤٣: ١١)

«أَنَا أَنَا الرَّبُّ، وَلَيْسَ غَيْرِي مُخَلَّصٌ»

وقد كان هناك دوماً وأبداً مخلصٌ واحدٌ فقط:

وَمَا مَضَتْ عَنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ الرُّجَالُ الرَّعَاةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لِنَذْهَبِ الْآنَ إِلَى بَيْتِ نَحْمَ وَنَنْظُرَ هَذَا الْأَمْرَ الْوَاقِعَ الَّذِي أَعْلَمْنَا بِهِ الرَّبُّ». فَجَاءُوا مُسْرِعِينَ، وَوَجَدُوا مَرْيَمَ وَيُوسُفَ وَالطِّفْلَ مَضْجَعًا فِي الْبُيُودِ. فَلَمَّا رَأَوْهُ أَخْبَرُوا بِالْكَلَامِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ عَنْ هَذَا الصَّبِيِّ (لوقا ٢: ١٥-١٧)

كان الرعاة أناساً فقراء ولا يتوقع المرء أن تتم دعوتهم إلى ميلاد ملك. لكن في حقيقة الأمر أنه كان هناك أشخاص آخرون في طريقهم لرؤية الطفل يسوع.

الحُكَمَاءُ (المَجُوسُ)

وَمَا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ نَحْمَ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودَسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدِ جَاءُوا إِلَى أورشليم قائلين: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ» (متى ٢: ١)

كان المجوس خبراء في دراسة النجوم، وقد جاءوا من بلادهم. ومن الواضح أن هؤلاء المجوس كانوا مراهفي الحس لما يفعله الله في العالم حيث أنهم تكبدوا الكثير من العناء والمشقة والتفقات في سبيل مشاهدة الطفل يسوع. وقد كان يتوقع من أمثال هؤلاء الحكماء أن يزوروا أحد الملوك. وكان الملك الذي يترتب على عرش يهوذا في ذلك الوقت هو هيرودس الكبير الذي من المؤكد أنه علم بوصول هذه المجموعة المرموقة من حكماء الشرق. فلا بدّ أن الجنود الذين كانوا يحرسون حدود منطقة يهوذا قد شاهدوا هؤلاء الحكماء وهم يدخلون يهوذا. ولم يكن أحد يفكر في أن زيارة هؤلاء المجوس تشكل أي تهديد حيث أنه لم يكن

بصحبتهم أي جيش. وكان كل ما سأله هؤلاء المجوس هو: «أين هو الملك الذي وُلد حديثاً؟»
فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمَعَ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ (مَتَّى ٢: ٣)

أدى هذا السؤال الوحيد إلى اضطراب هيرودس. فقد كان يمسك بزمام السلطة بيد من حديد! كما أنه كان مستعداً لسحق أي شخص يتجرأ على محاولة انتزاع العرش منه. لذلك، لا عَجَبُ أَنْ المدينة بأكملها اضطربت أيضاً. فقد كان هيرودس معروفاً بقسوته مع المواطنين — لا سيما حينما يكون مُنزِعاً. ولم يكن أحد يدري ما الذي سيفعله هيرودس في مثل ذلك الوقت! استدعى هيرودس مُستشاريه الدينيين:

فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكُتَبَةَ الشَّعْبِ، وَسَأَلَهُمْ: «أَيْنَ يُوَلَّدُ الْمَسِيحُ؟» (مَتَّى ٢: ٤)

ويُمكن للمرء أن يتخيل حيرة القادة الدينيين. فَمُنذُ متى يُظهِرُ هيرودس اهتماماً بالأُمور الدينية؟ كما أنهم لم يتوقعوا منه أن يسألهم عن المَسِيح! وهكذا، فقد بدا واضحاً أن رجال الدين اليهود لم يلتفتوا إلى ذلك الحدث العظيم الذي حدث في الأرض رغم أن مجوس الشرق أدركوه وجاءوا لأجله. لكن هيرودس لم يكن شخصاً يُمكن تجاهله. وقد طرح عليهم سؤالاً يجب عليهم الإجابة عليه: «أَيْنَ يُوَلَّدُ الْمَسِيحُ؟»

النبوة

يُمكننا أن نتخيل رجال الدين اليهود في تلك اللحظات وهم يفتحون سفرًا صغيراً ويفتشون فيه بخوف! فقد كان كل ما يهمهم هو أن يعرف هيرودس أنهم ليسوا الأشخاص الذين تتبؤوا بذلك. فقد كان هناك نبي اسمه «ميخا» هو الذي كتب عن هذا الأمر قبل أكثر من ٧٠٠ سنة. وأخيراً، عثر رجال الدين هؤلاء على الآية التي يبحثون عنها والتي تُجيب عن

سؤال الملك هيرودس وقام أحدهم بقراءة ما جاء فيها على مسمع هيرودس:
«أَمَّا أَنْتَ يَا بَيْتَ لَحْمِ أَفْرَاةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ الْوُفِّ يَهُودَا، فَمِنْكَ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُسَلِّطًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمَخَارِجُهُ مِنْذُ الْقَدِيمِ، مِنْذُ أَيَّامِ الْأَزْلِ» (مِيخَا ٥: ٢)

كانت تلك النبوءة مُحددة جداً. فهي تقول إن ذلك الطفل سيولد في بيت لحم أفراة. فقد كانت هناك مدينتان تحملان اسم «بيت لحم»: الأولى بالقرب من الناصرة، والثانية إلى الجنوب من أورشليم في منطقة أفراة. لهذا، كان لا بُدَّ من التمييز بينهما.

لو كان يوسف يعرف هذه المعلومة لوجد تفسيراً حقيقياً لرحلتها من الناصرة إلى بيت لحم. فقد كان الأمر بأكمله خطة الله! وقد استخدم الله إحصاء السُكَّانِ الروماني لكي يدفعهما إلى الذهاب إلى هناك.

أراد الملك هيرودس أن يعرف ما إذا كان النبي ميخا قد تنبأ بالمزيد أم لا. وبالفعل، كان النبي ميخا قد تنبأ بما هو أكثر من ذلك. فالنبوءة تقول بوضوح إن المولود موجود منذ الأزل! ولا بُدَّ أَنْ وجه هيرودس أصبح شاحباً حينما سمع ذلك. فلا يُمكن أن يكون هذا صحيحاً! فالله هو الوحيد الأزلي! لهذا، ظنَّ هيرودس أن رجال الدين هؤلاء ربَّما يُحاولون إفزاعه والتلاعب به. رغم ذلك فقد عقد العزم على مُسايرتهم حتى النهاية إلى أن يستوضح الأمر. وهكذا، فقد صرفهم واستدعى المجوس الذين يزورون المدينة:

حِينَئِذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِي ظَهَرَ. ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ

لَحْمٍ، وَقَالَ: «اذْهَبُوا وَأَفْحَصُوا بِالتَّدْفِيقِ عَنِ الصَّبِيِّ، وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِي، لَكِنِّي أَنَا
أَيْضًا وَسَجِدُ لَهُ». فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى
جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقَ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرَحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جَدًّا. وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ،
وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ. فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ. ثُمَّ فَتَحُوا كَنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلَبَانًا
وَمُرًّا.^٢
(مَتَّى ٢: ٧-١١)

واستمرَّ اللهُ في إرشاد هؤلاء الرجال الحكماء:

ثُمَّ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حَلْمٍ أَنْ لَا يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودَسَ، أَنْصَرَفُوا فِي طَرِيقِ الْخَرَى إِلَى كُورَثِيمَ.
وَبَعْدَمَا أَنْصَرَفُوا، إِذَا مَلَكَ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حَلْمٍ قَائِلًا: «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ
إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لِأَنَّ هِيرُودَسَ مَرْمَعٌ أَنْ يُطَلِّبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ». فَصَامَ وَأَخَذَ
الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ لَيْلًا وَأَنْصَرَفَ إِلَى مِصْرَ. وَكَانَ هُنَاكَ إِلَى وَقَاةِ هِيرُودَسَ... (مَتَّى ٢: ١٢-١٥)

عمل هيرودس كل ما في وسعه لقتل الطفل يسوع؛ وهذا هو ما يؤكد التاريخ المدني أيضاً. رغم ذلك فقد بقي الطفل في مأمن في مصر. في القصص القديمة كانت هناك غيمة فوق مصر إشارة إلى أنها مكان الاضطهاد والعنف. أما الآن فقد حدث شيء مختلف حيث أن الله اختار مصر كمكان يحظى بشرف إقامة الطفل يسوع فيه حيث أن الله قاد يوسف ومريم للذهاب إلى هناك من أجل حماية الطفل يسوع من بطش هيرودس. وبهذا أصبحت مصر مكاناً آمناً لهذه العائلة المميّزة.

بعد موت هيرودس، رجع يوسف ومريم والطفل يسوع إلى الناصرة وعاد يوسف إلى عمله كنجار.

وَكَانَ الصَّبِيُّ يَنْمُو وَيَتَّقَوَّى بِالرُّوحِ، مَمْتَلِئًا حِكْمَةً، وَكَانَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ
(لوقا ٢: ٤٠)

الكلمة

أيُّهما أفضل للتخاطب: الرسالة أم الشخص الذي كتب الرسالة شخصياً؟ رغم أن الرسائل قيمتها، إلا أنك إذا أردت أن تعرف شخصاً ما معرفة حقيقية فما من شيء يُوازي قضاء بعض الوقت معه في الحديث وجهاً لوجه. وقد رأينا أن الله أكرم جميع الذين آمنوا بكلمته المنطوقة والمكتوبة عبر العصور. لكن الله لم يتوقف عن إخبارنا عن نفسه؛ بل في حقيقة الأمر أنه سار خطوة أخرى للأمام بأن أظهر نفسه لنا عن طريق مجيئه إلى هذه الأرض.

فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ. هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللَّهِ... وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا...

(يوحنا ١: ١، ٢، ١٤)

ما هي هذه الكلمة التي كانت عند الله في البدء، والتي أصبحت جسداً؟ يقول لنا الكتاب المقدس إن هذه الكلمة لم تكن سوى يسوع المسيح. فالكلمة الأزلي لم يأخذ الاسم يسوع (الذي يعني «المخلص») إلا بعد أن وُلد كإنسان على أرضنا هذه.

وحيثما يقول الكتاب المقدس «وَالْكَلِمَةُ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ» فهو لا يعني بذلك أنه كان هناك إلهان. والآن، ففكر في الأمر بالطريقة التالية: حينما نتكلم فإننا لا نفكر في أن كلماتنا مُنفصلة عنّا نحن. فلا يمكن لأحد أن يفتح الدماغ ويقطع الجزء الذي يُمثل «الكلمات». فالكلمات هي أفكار منطوقة أو مكتوبة. وبطريقة أو بأخرى فإننا نُشكّل كياناً واحداً مع كلماتنا. فإن قام أحد بانتقاد ما أقوله أو أكتبه فإنه بذلك ينتقدي أنا وليس الحروف المكتوبة على الورقة أو المقاطع الصوتية المنطوقة في الهواء. وبالتالي فإن كل ما تحقّقه كلماتي، سواء كان ذلك إيجابياً أو سلبياً، هو نفس ما أحقّقه أنا. ففي نهاية المطاف، سوف أكون أنا الشخص الذي تُوجّه له الملامة أو المديح بسبب تلك الكلمات. وهكذا، فأنا وكلماتي واحد. وبالطريقة نفسها فإن يسوع والله واحد لأن يسوع هو كلمة الله.

ولا عَجَب أن الله، أعظم مُتكلّم، استخدم أفضل وسيلة للتخاطب معنا. فهو لم يكن يُخطّط لإبقاء نفسه محصوراً في ورق بالنسبة لنا، بل إنه جاء إلينا شخصياً:

(يوحنا ١: ١٤)

... وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا...

٣ . بين المعلمين

لما بُدَّ أن تربية الطفل يسوع كانت تجربة مليئة بالمفاجآت والدهشة ليوست ومريم. فقد كان يسوع كاملاً وبلا خطيئة. فحتى حينما كان يسوع ولداً صغيراً، لم يكن عديم الصبر، ولا وقحاً، ولا عصياً. ورغم أن هناك الكثير من القصص التي تتحدث عن السنوات التي قضاها يسوع في الناصرة، إلا أن الكتاب المقدس لا يقدم لنا سوى قصة واحدة فقط: وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح. ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد

(لوقا ٢: ٤١، ٤٢)

✦ في هذه السن، يصبح الولد «ابن العهد». وما زال اليهود يمارسون هذه العادة حتى يومنا هذا في احتفال يُسمى «بار ميثزفا».

بحسب الثقافة اليهودية، كان الولد يُصبح عضواً كاملاً في المجتمع الديني حينما يصل إلى سن البلوغ (١٢ سنة) ✦ وعندها، كان يتمتع بجميع الامتيازات والمسؤوليات التي يتمتع بها الشباب. وحينما قام يوسف ومريم برحلتها المعتادة إلى أورشليم في هذه المرة، كان يسوع قد بلغ سن الثانية عشرة.

طريق العودة

بعد انتهاء العيد، توجه الجميع إلى مواطنهم. ورغم أننا لا نعرف جميع تفاصيل تلك الرحلة، إلا أنه من المرجح أن سُكَّان الناصرة كانوا يسافرون معاً من أجل الرفقة والأمان. وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في أورشليم، ويوسف وأمه لم يعلما. وإذ ظنَّاه بين الرفقة، ذهباً مسيرة يوم، وكانا يطلبانه بين الأقراب والمعارف. ولما لم يجدها رجعا إلى أورشليم يطلبانه

(لوقا ٢: ٤٣-٤٥)

عملية البحث

من المؤكد أن عملية البحث عن الصبي يسوع رافقتها قلق شديد. فقد بحث يوسف ومريم عن يسوع في كل مكان يمكن لصبي مثله أن يوجد فيه. فقد بحثا في سوق الحلوى، وفي كل الأماكن المحتملة. وحينما نيسا من العثور عليه، رجعا إلى أورشليم بحثاً عنه. وأخيراً عثرا عليه في الهيكل:

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَجَدَاهُ فِي الْهَيْكَلِ، جَالِسًا فِي وَسْطِ الْمُعَلِّمِينَ، يَسْمَعُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ. وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوهُ يَهْتَمُّونَ مِنْ فَهْمِهِ وَأَجْوِبَتِهِ

(لوقا ٤: ٤٦، ٤٧)

وهكذا، عوضاً عن أن يقوم المعلمون الدينيون في الهيكل بتعليم الصبي يسوع، كان يسوع هو الذي يعلمهم. ومن الواضح هنا أنه لم يكن يلقي محاضرة، بل كان يطرح أسئلة عميقة، ويجيبهم عن أسئلتهم بصورة أذهلت الجميع بمن فيهم رجال الدين!

لم يكن رجال الدين هم الأشخاص الوحيدون الذين عجزوا عن الكلام؛ فقد بهت يوسف ومريم أيضاً، لكنهما شعرا بارتياح شديد وتفنسا الصعداء حينما عثرا عليه. وحينما تجاوزت مريم مرحلة الصدمة سألت يسوع قائلة:

... «يَا بَنِيَّ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هَكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذِّبِينَ!»

(لوقا ٢: ٤٨)

وعندها، وجَّه يسوع سؤالاً ليوسف ومريم قائلاً:

«مَاذَا كُنْتُمْ تَطْلُبَانِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَآ لَأَبِي؟»

(لوقا ٢: ٤٩)

تذكير لطيف

لم يكن هذا جواباً وقحاً، فقد كان يسوع يقول ببساطة إنه موجود في المكان الصحيح لصبي مثله - في بيت أبيه. لكن ما الذي عناه بحديثه عن أبيه؟ ومن يكون هذا الأب الذي أشار إليه؟ سوف نتناول هذا الموضوع في القسم اللاحق. أما الآن فيكفي أن نعرف أن يسوع استخدم هذه العبارة كتذكير لطيف لوالديه الأرضيين بحقيقته.

فَلَمْ يَفْهَمَا الْكَلَامَ الَّذِي قَالَهُ لَهُمَا. ثُمَّ نَزَلَ مَعَهُمَا وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ وَكَانَ خَاضِعًا لَهُمَا. وَكَانَتْ أُمُّهُ تَحْفَظُ جَمِيعَ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي قَلْبِهَا. وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

(لوقا ٢: ٥٠-٥٢)

٤ . النبي يوحنا المعمدان

يبدأ يسوع خدمته الفعلية إلا حينما بلغ سن الثلاثين تقريباً. وفي ذلك الوقت، كان يوحنا (ابن زكرياً وأليصابات) قد بدأ في تهيئة الطريق



له .

وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ جَاءَ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانُ يَكْرُرُ فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ قَائِلًا: «تُوبُوا، لِأَنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِإِسْعِيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً.» ... جِينِدُ خَرَجَ إِلَيْهِ أُورُشَلِيمَ وَكُلَّ الْيَهُودِيَّةِ وَجَمِيعَ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْأَرْدُنِّ (متى ٣: ١-٥، ٣-٥)



كان النبي يوحنا المعمدان يتمم النبوءة القديمة التي قيلت قبل ٧٠٠ سنة على فم النبي إشعياء. فقد كان يعدُّ الطريق أمام الرب. وقد قال النبي إشعياء في المقطع نفسه:

ارْفَعِي صَوْتِكَ بِقُوَّةٍ، يَا مُبَشِّرَةُ أُورُشَلِيمَ. ارْفَعِي لَأَ تَخَلِّي. قُولِي لِمَنْ يَهُودًا: «هُوَذَا إِلَهُكَ!» (إشعياء ٤٠: ٩)



كان يوحنا المعمدان يُخبر كلُّ من يُصغي إليه بأنَّ المسيح (المُخَلَّصُ الموعود) قد جاء. وقد أدى ذلك إلى حالةٍ من الغليان بين الناس ورجال الدين.

المعمودية

لُقِّبَ يوحنا بالمعمدان لأنه كان يُعمد الناس في الماء. ولم يكن طقس المعمودية غريباً عند شعوب منطقة الشرق الأوسط في تلك الأيام. ورغم أنَّ المعمودية تحمل الكثير من المعاني، إلا أنَّ هناك غموضاً كبيراً يكتنف هذه الكلمة في يومنا هذا.

كلمة «معمودية» تعني ضمناً الاقتران أو الاتحاد. وقد كانت هذه الكلمة تُستخدم في صناعة المنسوجات اليونانية القديمة. فإثناء عملية صُغ القماش، كانت قطعة القماش تُغمس في وعاء الصبغ فتأخذ لون الصبغة الموجودة في الوعاء. وهكذا، كان القماش يتحد تماماً مع

الصفة.

عرف يوحنا أنَّ اليهود ضلُّوا عن الأسفار المقدَّسة واعتنقوا أفكاراً بشرية. لذلك فقد قال لهم إنه ينبغي عليهم أن يتركوا طرقهم الضالَّة ويرجعوا إلى الله؛ أي أن يتوبوا. وقد أظهر اليهود الذين اعتمدوا في الماء أنهم اتَّحدوا مع رسالة التوبة التي جاء بها (أي أنهم وافقوا عليها شخصياً)

حِينَئِذٍ خَرَجَ إِلَيْهِ أورشليمُ وَكُلُّ الْيَهُودِيَّةِ وَجَمِيعِ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْأُرْدُنِّ، وَاعْتَمَدُوا مِنْهُ فِي الْأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ. فَلَمَّا رَأَى كَثِيرِينَ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ وَالصُّدُوقِيِّينَ يَأْتُونَ إِلَى مَعْمُودِيَّتِهِ، قَالَ لَهُمْ: «يَا أَوْلَادَ الْأَفَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرَبُوا مِنَ الْغَضَبِ الْآتِي؟ فَاصْنَعُوا أَعْمَارًا تَلِيقًا بِالتَّوْبَةِ»

(متى ٣: ٥-٨)

التوبة

رأى يوحنا أنَّ بعض الحضور هم من الفريسيين والصدوقيين. ورغم أنَّ هاتين الجماعتين لم تكونا بحاجة أحدهما للآخرى، إلا أنه كان يوجد بينهما عامل مُشترك ألا وهو الكبرياء والشعور بأنهم أفضل من الآخرين. وقد سمَّاهم يوحنا بالأفاعي لأنهم فرضوا على الآخرين قواعد صارمة جداً دون أن يمارسوها هم أنفسهم. لذلك فقد طلب منهم أن يتوبوا؛ أي أن يُغيروا أفكارهم وطرقهم.

معمودية يسوع

حِينَئِذٍ جَاءَ يَسُوعُ مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى الْأُرْدُنِّ إِلَى يُوْحَنَّا لِيَعْتَمِدَ مِنْهُ. وَلَكِنْ يُوْحَنَّا مَنَعَهُ قَائِلاً: «أَنَا مَحْتَاجٌ أَنْ اعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ»

(متى ٣: ١٣، ١٤)

كان يوحنا نبياً، لكنه أدرك أن يسوع أعظم من نبي. ولم يكن ينبغي على يسوع أن يتوب عن أي شيء لأنه كان كاملاً وبلا خطيئة. بل في حقيقة الأمر أن يوحنا طلب من يسوع أن يعمده بمعمودية التوبة لأنه كان يعرف أنه هو الذي يحتاج للمعمودية وليس يسوع. فأجاب يسوع وقال له: «اسمَحِ الْآنَ، لِأَنَّهُ هَكَذَا يَلِيْقُ بِنَا أَنْ نَكْمُلَ كُلَّ بَرٍّ». حِينَئِذٍ سَمَحَ لَهُ

(متى ٣: ١٥)

أَصَرَ يَسُوعُ عَلَى أَنْ يَعْتَمِدَ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَتَّحِدَ مَعَ رِسَالَةِ يُوْحَنَّا الدَّاعِيَةِ إِلَى حَيَاةِ الْبِرِّ. كَمَا أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُؤَكِّدَ صِحَّةَ رِسَالَةِ يُوْحَنَّا.

فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللَّهِ نَازِلاً مِثْلَ خِمَامَةٍ وَأَتْبَاعًا عَلَيْهِ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرَرْتُ»

(متى ٣: ١٦، ١٧)

سوف نتطرق إلى هذه الآية بشيء من التفصيل بعد قليل. لكن دعنا الآن نكمل قصتنا هذه.

حمل الله

وَفِي النَّدَى نَظَرَ يُوْحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ، فَقَالَ: «هُذَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ! هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ: يَأْتِي بَعْدِي، رَجُلٌ صَارَ قُدَّامِي، لِأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي» (يوحنا ١: ٢٩)

(٣٠)

قال يوحنا عن يسوع بأنه المُخلص الموعود الذي سيحمل خطيئة العالم. كما أنه قال بأن يسوع كان موجوداً من قبله؛ أي منذ الأزل. علاوة على ذلك، قال يوحنا:

ذات مرّة، كنت أشرح بعض الأفكار الكتابية لزوجين شابين. وحينما قرأت هذه الآية: «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ»، دَبَّتْ الحيوِيَّةُ فِي الزوجة وقالت بصوت مُفعم بالحيويَّة والنشاط: «الحَمَلُ، الحَمَلُ! هل لهذا علاقة بكل الحِمْلانِ التي كُنَّا نقرأ عنها في العهد القديم؟»

أجبتها قائلاً: «أجل، له علاقة. وعندما يحين الوقت الملائم، سوف تجدِين أن كل الأمور تتسجم معاً بطريقة عجيبة تُثير الدهشة!»

وَحدانيَّةُ جَامِعَةٍ

عمل الله مع الشعب العبراني القديم مُدَّة ١٠٠٠ سنة لكي يوصلهم إلى النقطة التي لا يعبدون فيها آلهة أخرى. وقد استخدم الله الأوقات العصيبة والسببي من أجل إخراج عبادة الأصنام من حياتهم. وأخيراً، عبد الشعب الإله الواحد دون سواه.

لكن بعد ذلك، أراد الله من شعبه ومن الأمم الأخرى أن يفهموا المزيد عنه؛ وهو شيء لم يكونوا مُستعدين له إلى أن عرفوا أن الله واحد. فرغم أن الله واحد كما تُشير الآية التالية: «... الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ»، إلا أن هذه الوجدانيَّة هي وحدانيَّة جامعة.

نحن كثيراً ما نستخدم الفكرة ذاتها في حديثنا عن إحدى الجامعات أو أحد المُستشفيات. فنحن نعرف أننا نتحدَّث عن جامعة واحدة رغم أنها تضم العديد من الكليات. كما أننا نتحدَّث عن مستشفى واحد في حين أنه يشتمل على الكثير من الأقسام. وبالطريقة نفسها، حينما نتحدَّث عن أن الله يمتلك وحدانيَّة جامعة، فإننا نعني أن الله واحد، ولكنه يتألَّف من ثلاثة أقانيم: الآب، والابن، والرُّوح القُدس. ويُشار إلى هذه الوجدانيَّة الجامعة في اللاهوت بكلمة «الثالوث» والتي تعني أن الله واحد لكنَّهُ مُثلَّث الأقانيم.

في القرون التي سبقت ميلاد يسوع، أكَّد الأنبياء على هذه الوجدانيَّة الجامعة من خلال ما كتبوه عن الله بصيغة الجَمع. فعلى سبيل المثال، كتب موسى عن خلق الله للإنسان فقال: وَقَالَ اللَّهُ: «نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشِبْهَتِنَا...» (تكوين ١: ٢٦)

وحينما أخطأ آدم:

وَقَالَ الرَّبُّ إِلَهُهُ: «هُوَذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفاً الْخَيْرَ وَالشَّرَّ» (تكوين ٣: ٢٢)

كما أن الله قال حينما شَتَّت أهل بابل:

«هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنَلْبِئِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ». فَبَدَدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ... (تكوين ١١: ٨، ٧)

• اللغة العبرية تُشبه اللغة العربية في أنها تحتوي على صيغة المفرد، وصيغة المتكلم، وصيغة الجمع (ثلاثة فما فوق) وكلمة الوهيم تأتي بصيغة الجمع دوماً.

وحَتَّى إنَّ الكلمة التي كان الأنبياء يستخدمونها في حديثهم عن الله (ألا وهي كلمة «الوهيم») تحمل معنى الوجدانيَّة الجامعة. ففي اللغة العبرية، تأتي كلمة «الوهيم» بصيغة الجَمع فقط لتحمل معنى مُركباً رُغم أن الكلمة نفسها مُفردة.

بمجيء الرب إلى الأرض باعتباره إلهاً وإنساناً في آنٍ واحد، أظهر الله وحدانيته الجامعة بقدر هائل من التفصيل. ويمكننا أن نرى ذلك من خلال حديث الملاك جبرائيل مع مريم حيث قال لها:

«الرُّوحُ الْقُدُسُ يَجِلُّ عَلَيْكَ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تُظَلِّكُ، فَلِذَلِكَ أَيْضًا الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكَ يَدْعَى ابْنَ اللَّهِ»
(لوقا ١: ٣٥)

ففي هذه الجملة الواحدة، تكلم الملاك جبرائيل عن ثلاثة أقانيم (الروح القدس، والعلي، وابن الله)؛ لكنه تكلم عن إله واحد فقط. ومن هذه النقطة فصاعداً في الكتاب المقدس، يُصبح هذا الأمر مألوفاً جداً. فعلى سبيل المثال، قرأنا قبل قليل الآيتين التاليتين:

فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللَّهِ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ وَأَتَى عَلَيْهِ، وَصَوَّتْ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِّرْتُ»
(متى ٣: ١٦، ١٧)

نجد الأقانيم الثلاثة في هاتين الآيتين: فهناك يسوع، وهناك روح الله، وهناك صوت من السماء؛ لكن هذه الأقانيم الثلاثة تُشكّل كياناً واحداً وإلهاً واحداً اسمه «الرب».

قد يكون من السهل علينا أن نفهم المقصود حينما نتحدث عن إحدى الجامعات أو أحد المستشفيات في إطار الوجدانية الجامعة. أمّا حينما نستخدم هذا المفهوم في الحديث عن الله فقد يكون الأمر مريباً ومُحيراً. وقد حاول الكثيرون عبر السنين توضيح فكرة وحدانية الله الجامعة فضربوا الأمثلة التالية:

١. الماء: رغم أن الماء يمكن أن يوجد في شكل سائل، أو بخار، أو ثلج، إلا أنه يبقى ماءً

نوعان من العظمة!

يقول البعض: «هذا مُستحيل! لا يمكن لله أن يولد كطفل لا حول له ولا قُوَّة في حظيرة حيوانات قذرة. لا يمكن لله أن يُصبح إنساناً فالله أعظم من أن يفعل شيئاً كهذا!» هل هذا التفكير سليم؟ للإجابة عن هذا السؤال، ربّما يتعيّن علينا أن نُعيد تعريف كلمة «عظيم». ففكر في النقطتين التاليتين:

١. هناك عَظْمَةٌ الملك الذي يعيش في قصره البديع، والمُحاط بالثروة والرفاهية والخدم الذين يسهرون على راحته. ومثل هذا الملك نادراً ما يُوسخ يديه. كما أنه لا يعرف شيئاً عن الصعوبات والمشقات التي يواجهها أهل بلده في كل يوم.
٢. ثمّ هناك عَظْمَةٌ الطبيب الماهر الذي ترك ممارسة الطب في المستشفيات الراقية في بلده لكي يخدم في منطقة نائية بحاجة له. فهو يعمل هناك وسط الأمراض والفقر، ويخدم الناس، ويُساعدهم، ويشفيهم، ويفني حياته لأجلهم.

في رأيك، ما هو نوع العَظْمَةِ التي ينتمي إليها إلهاً المحب والرحيم؟

في جميع هذه الحالات الثلاث.

٢. **الأبعاد:** لكل صندوق ارتفاع، وعرض، وطول. ورغم أن هذه الأبعاد تختلف بعضها عن بعض، إلا أنها لا تنفصل.

٣. **الضرب:** $1 \times 1 \times 1 = 1$.

٤. **الشمس:** تتكوّن الشمس من جُرم سماوي مرئي، وأشعة ضوئية غير مرئية، وأشعة حرارية تُعطينا الدفء؛ ورغم أن هذه ثلاثة عناصر مُتميّزة، إلا أنها تُشكّل شمساً واحدة.

ورغم أن هذه الأمثلة التوضيحية يمكن أن تساعدنا إلى حدّ ما، إلا أنها تبقى عاجزة عن تقديم توضيح كامل لنا. لذلك، يجب علينا أن نحرص على عدم تقييد الله بمستوانا البشري وعدم النظر إليه وكأنه واحد منّا. فالرب يقول إنّ جزءاً من عدم فهمنا له يرجع إلى أننا ننظر إليه أحياناً كما لو كان واحداً من البشر:

(المزمور ٥٠: ٢١)

... ظننتُ أنني مثلك ...

حينما كنّا أطفالاً صغاراً، كانت هناك الكثير من الأشياء التي لا نفهمها. رغم ذلك فقد كنّا نقبلها كما هي. فما هي الكهرباء؟ ولماذا لا تساب الكهرباء على الأرض حينما نسحب القابس (الفيش) من الحائط؟ إنني لا أراها! وما الذي تعنيه بقولك إنها قد تقتلني إذا أدخلت مسماراً في منفذ الكهرباء؟ وهكذا، فإنّ عدم فهمنا للكهرباء لا يعني مُطلقاً أنها غير موجودة أو ليست حقيقية.

وكنا ضجيين، قد نتفاخر إلى حدّ ما بقدرتنا على استيعاب العالم من حولنا. فالأشياء التي حيرت القدماء عبر العصور أصبحت مألوفاً لنا. رغم ذلك، يجب علينا أن نبقى متواضعين. فهناك أمور كثيرة في الكون الذي نعرفه ما زالت غامضة لدينا. فالأشخاص الذين سيعيشون بعد ١٠٠ سنة من الآن سيعتبروننا عمياناً في ضوء الأشياء التي كنّا نجهلها والتي أصبحت مألوفاً لهم. وقد يأتي وقت يصبح فيه مفهوم الثالوث واضحاً كل الوضوح!

وحتى لو جاء ذلك اليوم بالفعل، يجب علينا أن نُدرك أنّ قدرتنا المحدودة على التفكير لا تتوافق مع إلها غير المحدود. وكما تقول كلمة الله فإنّ إله الكتاب المقدّس هو إله قادر على إثارة دهشتنا بالفعل. فهناك أشياء تتعلّق بالله وتقع خارج نطاق المنطق بالنسبة لنا حيث أنه توجد تعقيدات مُذهلة يصعب علينا فهمها واستيعابها. فحتى فكرة وجود إله سرمدى هي ليست بالفكرة التي يسهل استيعابها. كما أنّ فكرة وجود الله في كل مكان في الوقت نفسه تُحير العقول! وهكذا، فإنّ محاولة فهم هاتين الحقيقتين عن الله بصورة كاملة قد تكون مُستحيلة لعقولنا المحدودة. وما ينطبق على هاتين الحقيقتين ينطبق أيضاً على فكرة وحدانية الله الجامعة.

«الخفايا للربّ إلها، لكنّه أعلنَ كلامَ شريعته هذه حتى نعملَ بها ونبتونا إلى الأبد»

(تنثية ٢٩: ٢٨ - المشتركة)

أفكار لا يُعلمها الكتاب المقدس:

- **التثليثية:** كانت هذه الفكرة سائدة عند المصريين القدماء. فقد كانوا يضعون آلهتهم في مجموعات ثلاثية. وغالباً ما كانت كل مجموعة ثلاثية من الآلهة تُشكّل عائلة واحدة. فعلى سبيل المثال، كان أوزيريس هو الأب، وإيزيس هي الأم، وحورس هو الابن. وفي وقتنا الحاضر، يعتقد البعض خطأً أن الله هو الأب، ومريم هي ملكة السماء والأم، ويسوع هو الابن. لكن هذه الفكرة غريبة تماماً عن الكتاب المقدس.
- **الشكلية:** بحسب هذا الفكر، فإن هناك ثلاثة أدوار يقوم بها شخص واحد مثلما هو الحال في وجود رجل يلعب دور الابن، والزوج، والأب في آن واحد.

